عنصر زخرفة شجرة الحياة الآشورية

م. د. عادل عبدالله عبدالستار الشيخ(*)
م. م. غسان مردان حجي النجاري(**)

المقدمة

نحاول من خلال هذا البحث تقديم مدخل لعنصر زخرفة شجرة الحياة الآشورية ومدى أهميتها في فنون العراق القديم ، إذ أصبحت هذه الزخرفة واحدة من العناصر الفنية الرائعة التي برع الفنان العراقي في تصميمها وتنفيذها على الأعمال الفنية . وتعد الأدلة المكتشفة خلال أعمال التنقيب من أهم مصادر معلوماتنا في هذه الدراسة ، فقد تم العثور على نماذج كثيرة من الرسوم والمنحوتات الجدارية والأختام الأسطوانية في مواقع عديدة في العراق وهي النماذج التي قمنا بدراسة خصائصها الفنية وأساليب تنفيذها وهو ما سيتوضح لاحقاً. إن هذا العنصر الزخرفي يلقي الضوء على جانب مهم من فن الزخرفة في العراق القديم ، كونها تعد أصولاً لفن الزخرفة في العصور اللاحقة فضلاً عن احتفاظها بخصائصها المنفردة التي تعكس شخصية الفن وعراقته وقدمه إلى جانب تأثيره في الفنون الأخرى . فان الهدف من هذه الدراسة معرفة بداية نشأة عنصر شجرة الحياة ومعرفتها عند العراقيين حتى نهاية العصر الآشوري الحديث ومعرفة المزايا والتطورات الحاصلة فيها إذ عبّر الفنان عن هذه الزخرفة من خلال الطبيعة وما

(*) قسم الآثار – كلية الآداب / جامعة الموصل.
(**) قسم الآثار – كلية الآداب / جامعة الموصل.

فيها من مرئيات ، ويمكن الاستدلال على عدة دوافع تقف وراء شيوع هذا العنصر الزخرفي منها الدافع الديني ولذلك ارتبطت المفاهيم الفنية بالعقيدة الدينية في العراق القديم في كثير من الأعمال الفنية . وعبر مراحل مختلفة من تاريخ العراق القديم فضلاً عن الإحساس بجمال الطبيعة والانجذاب نحو كل ما هو جميل وتوظيفه في تزيين المنحوتات والرسوم الجدارية والأختام الأسطوانية . وأخيراً الدافع التقني المتمثل بالقضاء على الفراغ المحيط بالمشهد المنفذ فوق سطوح المنحوتات والأختام .

أصل شجرة الحياة الآشورية

يعد هذا العنصر من العناصر الزخرفية المهمة والتي لها صلة بالنفس البشرية فكان الإنسان مدفوعاً بطبعه إلى التأمل بما يحيط به من سهول وجبال وأشجار وانهار وطيور وحيوانات ، ولذلك فان الطبيعة مصدر إلهامه وإيحائه وتنمية خياله ومنها استنبط عناصره الفنية ووحداته الزخرفية [1].

ولقد نشأ مفهوم (الشجرة المقدسة) عند السومريين ، إذ يعد من أهم العناصر الزخرفية الرمزية التي شاع استخدامها في الفن العراقي القديم وفي فن عصر الدولة الآشورية خاصة [2]. إن شجرة الحياة أصبحت هي والملك رمز الحياة في سومر القديمة وهو مفهوم ديني سياسي بسط صورة تجريدية شعارية مكونة من عناصر تصويرية تمثل الشجرة والملك وأفراد الحاشية آنذاك [3]. والدليل على ذلك أن موضوع الشجرة المقدسة مع الملك الراعي حامي الحياة ذو أصل سومري لم

(1) Reade,J, E, the Ziggurat and temples of Nimrud, Iraq, vol, l – XIV. 2002. P.28.

(2) Ed Zard,otten, Assyriologie New york, 1981. P. 210 .

(3) Madhloom. T. A. the chronology of New Assyrian Art. London, 1970. P. 10 .

يفقد طلاوته في الشرق الأدنى منذ أن بدأت حضارة العصر الممهد للتاريخ في نهايات الألف الرابع ق.م ، غير أن اقتباس الروعة والجمال في كافة المنجزات الفنية إلى درجة حظيت فيه شجرة الحياة في الطقوس الآشورية بنفس الوسامة والتكريس الذي حظيت به في المعتقدات السومرية ، كان بتأثير من عقيدة سومرية شقت طريقها الأول في الفن الآشوري الحديث قائمة على الربط الوثيق بين العنصرين الذي يهدف إلى التجدد والعطاء [4]. وان هذا العنصر الزخرفي النباتي الذي استخدم بشكل محدد في فن الزخرفة خلال العصور القديمة إلا انه شاع استخدامه في العصر الآشوري الحديث وتتمثل أصل هذه الزخرفة النباتية بأشكال شبيهة بشجرة النخلة في الجزء الجنوبي من العراق وشبيهة أيضاً لأشجار الصنوبر في الجزء الشمالي من العراق ولقد وجدت بكثرة في أعمال النحت الآشوري إذ اقتبس الفنان شكلها من البيئة التي كان يعيش فيها وان شكل هذه الشجرة مألوفة في الفن السومري والبابلي والآشوري [5] . ولقد تميزت هذه الشجرة التي تحمل مدلول الرمز الديني بفخامة ، حيث نرى (الشجرة المقدسة) تبدو بشكل نخيل مطرزة أو بشكل شجرة الصنوبر ـ أي على شكل كمثري ـ وكثيراً من النماذج الموجودة على المنحوتات والرسوم الجدارية والأختام الأسطوانية والرسوم على المعادن وهذا العنصر يعد من أكثر العناصر شيوعاً في الزخرفة الآشورية [6] .

(4) Mallowan, B. the Assyrian tree", Sumer, vol 1 – 2 No 42 1984. P. 141 .

(5) Frank fort, Henri, the Art and Architecture of the Ancient orient, London. 1977. P. 270 .

(6) Mcgerern, Partiche, Stuart J. Fleming. And solon on Hkatz, the origing and Ancient history of wine London. 2004. P. 180 .

المفهوم الديني لاستخدام شجرة الحياة الآشورية

إن المفهوم الديني لشجرة الحياة المقدسة ارتبط بالعقيدة منذ البدايات الأولى للحضارة العراقية وصولاً للعهد الآشوري الحديث ، إذ أصبح الملك الآشوري يؤدي الطقوس الدينية الخاصة لشجرة الحياة من خلال صب الماء المقدس عليها اعتقاداً منهم بعدم قدرة رموز الشر من قتل الحياة في عناصر الطبيعة، وذلك لأنها شجرة طاهرة وان تلك الطقوس خلقت من أجل ديمومة الحياة التي تتمثل بحماية العناصر الموجودة في الطبيعة من خلال عملية الإنماء والخصب والتجدد والعطاء [7].

وإن هذه الشجرة نباتية دائمة الخضرة تهدف إلى الحفاظ على الحياة وتجسيدها ضمن المضمون الديني[8]. والديانة في العراق كانت أساس ديانة حيوية بالنسبة لحياة الإنسان في العراق لأنه كان يرى نفسه محاطاً بأرواح غريبة ، ولقد تأثر الدين الآشوري تأثيراً عميقاً باعتقاد وجود الجن والأرواح الشريرة والأرواح الخيرة التي تحيط الإنسان وتؤثر على الحياة آنذاك ولذلك كانت تهدف إلى الأمان والسعادة والسلام ومطاردة القوى الشريرة بكل الوسائل من اجل أن تبقى السيادة والقوة طول الحياة[9]. ولقد وصلنا مشهد يمثل جني في منحوتة وهو يلمس الشجرة المقدسة بكوز من الصنوبر ويمسك في يده اليسرى دلو اً صغير اً، فبعض الباحثين يرى أن ذلك يمثل تلقيح أشجار النخيل غير أن الأصح هو أن الجني يجمع السائل

(7) مورتكات ، أنطوان ، الفن العراقي القديم ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، بغداد ، 1975، ص430 .

(8) عكاشة ، ثروت ، تاريخ الفن العراقي القديم ، سومر ، بابل ، آشور ، بغداد ، 1967 - 1968 ، ص494 .

(9) Parpola, Simo, state archives of Assyria volume, 1X, Helsinki 1997. P. 109 .

المقدس الذي يترشح من جذع تلك الشجرة ويغطى كوز الصنوبر في الدلو حيث يتحول السائل الذي يحتويه إلى ماء مقدس وبهذا الماء يقوم الجني على رش الملك وذلك من اجل الحفاظ على الملك من تأثيرات القوة الشريرة وفي هذا المشهد الذي نحت بالنحت البارز يتميز بجمال الفن ودقة الصنع وظهور زخرفة عنصر كوز الصنوبر أمام زخرفة عنصر شجرة الحياة الآشورية وعلى يمين ويسار الجني وجود الشجرة المقدسة [10] (الشكل رقم 1) . وهذا ما يؤكد أن مفهوم الحماية لدى العراقيين القدماء قد شغل تفكيرهم منذ فترة طويلة من الزمن[11] .

استخدام عنصر شجرة الحياة في العصر الآشوري الحديث

إن من أهم العناصر الزخرفية التي شاع استخدامها في الفن العراقي القديم عامة وفي عصر الدولة الآشورية الحديثة خاصة ، هو عنصر شجرة الحياة الآشورية والشجرة المقدسة [12]. وجاء ذكر شجرة الحياة في النصوص السومرية بالصيغة الآتية (GIŠTT) وكما وردت الإشارة إليه في اللغة الأكدية بصيغة (Isu balatu)[13]. إن هذه الشجرة تعد رمزاً دينياً مرتبط اً بالإله تموز وهي من الرموز الدينية التي جاءت في الفنون السومرية واستمرت خلال تاريخ بلاد الرافدين[14]. ولقد أصبح لهذه الشجرة أهمية خاصة لأنها تمثل عنصراً زخرفياً في العصر الآشوري الحديث ، حيث تم تكرار هذا العنصر مع العناصر الزخرفية

(10) Cloraant Gabbini, the Ancient world New york toronto, 1966, p. 50.

(11) بارو ، اندريه ، بلاد آشور ، ترجمة عيسى سلمان وسليم طه التكريتي ، بغداد ، 1980 ، ص96 .

(12) Reade, J, E, op .Cit. p. 28.

(13) لابات ، رينيه ، قاموس العلامات المسمارية ، ترجمة البير ابونا ووليد الجادر وخالد سالم إسماعيل ، بغداد ، 2004 ، ص69 ، ص137 .

(14) ساكز ، هاري ، عظمة بابل ، ترجمة : عامر سليمان ، الموصل 1979 ، ص685 .

الأخرى الموجودة عند الآشوريين لتغطية المساحات على الأعمال الفنية، لإيحاء العامل الديني الذي يتمثل بحماية العناصر الموجودة في الطبيعة من خلال عملية الإنماء والخصب والتجدد والعطاء. والأرجح أن نقول تعبير رمزي للخير والعطاء المتمثلة بعناصر الطبيعة وحمايتها من رموز الشر لتتم فيها عملية التجدد من أجل ديمومة الحياة بدليل وجود الملك الآشوري أمام (الشجرة المقدسة) وظهرت هذه الشجرة على المنحوتات الجدارية والأختام الأسطوانية والرسوم الجدارية والمنحوتات المعدنية وعلى العاجيات [15] . نفذت هذه الزخرفة على الرسوم الجدارية والمنحوتات الجارية حيث كان للرسوم المنفذة على الجدران دور كبير ومؤثر من الجانب الديني ، فقد كانت تنفذ بأساليب في غاية الدقة والانتظام وكما كان له دور كبير من الجانب الإعلامي ولهذا بذل الفنان الآشوري جهداً كبيراً لكي تظهر بأسلوب لائق[16]. ونفذت الزخرفة على سطوح الأختام الأسطوانية لإضفاء منظر جمالي وإكمال الفراغ ، وثمة ختم مبسط من العقيق الأحمر عليه رسم ملاكين مجنحين تتوسطهما (الشجرة المقدسة) وعلى الشجرة طائران خلف كل منهما نجمة [17] (الشكل رقم 2) . وان هذه الزخرفة لشجرة الحياة تكثر في تزيين المنحوتات المعدنية إذ عمد الفنان في تزيين هذه المنحوتات بأبعاد متناسقة من حيث الطول والعرض وهذا الأسلوب يعطي النظر مزيداً من الجمالية [18]. واستخدمت هذه الزخرفة في تزيين العاجيات ولكن بشكل محدد

(15) Collon, Dominique, Cylinder Seals Vrea Assyian and New Babylonian periods, Brilisl Museum, 2004, p. 281.

(16)

(17) Reade, J, E, op. Cit. p. 202.

(18) Glorannt Gabbini, op. Cit. p. 43.

جداً وقليل[19]، ولا بد من الإشارة إلى تكوينات زخرفة شجرة الحياة الآشورية وهي تظهر أحياناً في أشكالها المستوحاة من الطبيعة المتحولة إلى أشكال تجريدية تحمل مدلولات روحية تنبثق من قاعدتها أربعة أغصان على شكل خطوط متموجة ذات نهايات مزينة بتصاميم وألوان [20]. وقد عمد الفنان الآشوري على التركيز على الجمال الظاهري في وصفه الطبيعي الذي يعتقده من خلال الفن التأملي الذي يتجلى في زخرفة شجرة الحياة الآشورية [21]. وقد سبقت الإشارة إلى شجرة الحياة لأهميتها الخاصة في المعتقدات الدينية العراقية واستناداً إلى ذلك أبدع الفنان الآشوري في تزويق وتزيين المنحوتات والرسوم الجدارية والأختام الأسطوانية والمنحوتات المعدنية والفخاريات بما يناسب الحياة المتحضرة التي كان يعيشها الشعب الآشوري آنذاك، لذا يعد هذا العنصر الزخرفي عنصراً مهماً في الزخرفة الآشورية الحديثة، ولأهميتها الجمالية الدقيقة وصياغتها الفنية المدهشة فقد برع الفنان الآشوري في تنفيذها فأصبحت هذه الزخرفة إحدى مقومات الفن الآشوري[22] .

عنصر زخرفة شجرة الحياة الآشورية على المنحوتات الجدارية

تعد المنحوتات الجدارية الآشورية وسائل إعلامية منظورة سجلت للبشرية جانباً مهماً من أعمال الملوك الآشوريين وهي عبارة عن منحوتات جدارية كبيرة فسحت مجالاً واسعاً لتصوير أحداث تعرف بالسرد القصصي من أجل تعزيز

(19) بارو ، اندريه ، المصدر السابق ، ص66 .

(20) مورتكات ، أنطوان ، المصدر السابق ، ص44 .

(21) عكاشة ، ثروت ، المصدر السابق ، ص509 .

(22) Parpola, Simo, op. cit, P. 1.7 .

الموضوعات الأساسية التي تشير إلى الإنجازات المهمة للآشوريين [23] . ويتبين من ذلك أن الفنان الآشوري اعتنى بالعناصر الأساسية التي تخص الزخرفة من خلال التوافق بين جميع أجزاء الأشكال المنفذة والمزخرفة من أجل توظيفها في خدمة الوظيفة الدينية [24] . وان هذه المنحوتات الجدارية تؤدي دوراً كبيراً ومؤثراً في الجانب الإعلامي لما احتوته من مشاهد وزخارف ، إذ أضفت المزيد من الفخامة والهيبة على قاعات القصور الآشورية [25] . وقد تفنن الفنان الآشوري في تنفيذ الزخارف على المنحوتات الجدارية من أجل تحقيق الوظيفة الدينية وإضفاء الطابع الجمالي عليها ، وزخرفة شجرة الحياة تعتبر من أبدع الأشكال الزخرفية الآشورية وأشهرها صيتاً وثمة مشاهد عديدة مكتشفة تصور لنا زخرفة هذه الشجرة وأقدم المشاهد التي تم اكتشافها في مدينة آشور تعود بتاريخها إلى العصر الآشوري الوسيط أي (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) [26] . ولقد ظهرت زخرفة شجرة الحياة بتصاميم متنوعة على جدران المنحوتات الآشورية بأشكال مختلفة وبديعة على المشاهد الفنية ومن ذلك تبدو هذه الزخرفة متعددة الأغصان وكثرة التفرعات وامتداد جذورها وفيها الحيوية العالية والمظهر الجمالي الرائع واللائق في معظم الوحدات الزخرفية ذات اللمعان المستوحاة من الطبيعة العراقية القديمة والمألوفة

(23) حمود ، حسين ظاهر ، المنحوتات الجدارية من وسائل الإعلام عند الآشوريين ، مجلة آداب الرافدين ، العدد 31، 1998، ص291 .

(24) Guralnick, Eleaqor, Sargonid sculpture ard the late Assyrian cubit, Iraq. Vol, IV III 1995. P. 89 .

(25) الجادر ، وليد ، الزخرفة ـ الخط ـ الرسم ، موسوعة الموصل الحضارية ، مجلد 1 ، الموصل ، 1991، ص449 .

(26) باور ، اندريه ، المصدر السابق ، ص90 .

في معظم مشاهد الفن التشكيلي السومري والبابلي والآشوري خاصة [27]. وهنالك مشهد يصور لنا شجرة الحياة عثر عليها في القصر الشمالي في مدينة نمرود تصور الملك بشكل مزدوج أمام الشجرة (شجرة الحياة) وفي أعلى الشجرة قرص مجنح ونلاحظ في هذه اللوحة الملك يساهم في طقوس الإخصاب والإنماء [28] (الشكل رقم 3). وكذلك ظهرت زخرفة شجرة الحياة على منحوتة مصنوعة من الحجر مؤلفة من قطعة واحدة ظهرت فيها شجرة الحياة في الجهة اليمنى كاملة أما الجهة اليسرى ظهر فيها جذع الشجرة وهذه المنحوتة منفذة بالنحت البارز، ومن هنا يتضح لنا براعة الفنان الآشوري في تنفيذ فنون الزخرفة الراقية على أعمال النحت ومهارة فنانيهم وخبراتهم في هذا العصر [29] (الشكل رقم 4). وفي تصميم آخر لزخرفة شجرة الحياة لوحة تعود للملك الآشوري توكلتي ننورتا أمام (الشجرة المقدسة) في وسط اللوحة أو المنحوتة وفي أعلى القرص المجنح والملك يرفع يده اليمنى إلى الأعلى ليباركها ويمارس الشعائر الدينية ولكن في هذه اللوحة لم تظهر سوى يد الملك وهذه المنحوتة تزينها هذه الشجرة بتفرعات عديدة والزخرفة هنا تكون متشابكة ومتناظرة وعناصرها متقابلة ، إذ أبدع الفنان الآشوري في تشكيل هذه الزخرفة وظهور ازدواج إعلامي بأسلوب يعبر عن روعة هذا العمل الفني [30] (الشكل رقم 5). وتم العثور على لوحة أخرى تعود للملك توكلتي ننورتا على جدران قصره هي عبارة عن لوحة جدارية مزخرفة بأزهار البابونج واللوتس وفي

(27) Kubrt – Amelie, The Ancient Near east, C. 3000 – 330. BC. Vol 2 , London, 1995. P. 489 .

(28) Parpola. S. and .R .M.Whiting, proceedings of the loth Anniversary sgmosium of the Peo – Assyian helsinki, september 7-11, 1993, p. 361 .

(29) صالح ، قحطان رشيد ، الكشاف الأثري في العراق ، بغداد ، 1987 ، ص38 .

(30) Reade, J, E, op, cit, p. 28.

وسط اللوحة (شجرة مقدسة) ، وظهور غزالتين متعاكسين أمام (الشجرة المقدسة) وهذه اللوحة تعكس لنا الزخارف الآشورية المتكونة في هذه اللوحة الرائعة [31] (الشكل رقم 6). وثمة مشهد آخر للشجرة المقدسة في لوحة بيضوية الشكل تزين فيها الزخارف الآشورية جميع أنحاء اللوحة من الأعلى على شكل افريز يزخرف جدار اللوحة وفي الأسفل أزهار اللوتس الآشورية وزهرة البابونج وفي وسط اللوحة رسم للشجرة المقدسة وهي محاطة بمخلوقات مركبة ومجنحة في كل منها في اليد اليمنى مخروط وهو كوز الصنوبر ويقربه إلى الشجرة وفي اليد اليسرى سطل ومن خلال وجود الشجرة في وسط المشهد وتكرار أغصانها المزينة بالثمار على جانبيها الذي يدل على عطاء الشجرة في أعلى المشهد نرى أشكال من الحيوانات وصورة مخلوق مجنح يمسك في يده اليمنى واليسرى الحيوانات ، ونرى أيضاً فوق الشجرة مخلوقة مجنحة وهذه المخلوقة أيضاً تزينها الزخارف الآشورية الجميلة ، ويظهر في هذا المشهد شجرة صغيرة ينبثق من قاعدتها أغصان مزينة بوردات ، هذا المشهد الرائع يقدم الصورة الواضحة إلى رفعة الذوق الفني وارتقائه عند الآشوريين ويضفي رونقاً على واجهات المنحوتات ومن خلاله تملأ جميع الفراغات على السطوح الحجرية الجامدة [32] (الشكل رقم 7). استطاع الفنان الآشوري من خلال هذا الفن أن يعبر عن إبداعاته وأصبحت عناصر تلك الزخرفة أثراً بارزاً في حياة الآخرين ، ويرى بعض الباحثين أن الفنان الآشوري فاق غيره من الفنانين في العالم القديم ، وقد عمل الفنان الآشوري في نحته لزخرفة عنصر

(31) Ibid, P. 139 .

(32) Madhloom, T.A. op. Cit, p. 65 .

شجرة الحياة على المنحوتات الجدارية عملاً جمالياً وتركيباً بنيوياً وزخرفتها على الأعمال الفنية بدقة متناهية ورائعة في التركيب والتنسيق والعمل المنظم [33].

عنصر زخرفة شجرة الحياة على الأختام الأسطوانية

تعد الأختام واحدة من أبرز الأعمال الفنية التي قدمتها لنا الحضارة العراقية ويمثل هذا الإنجاز قيمة حضارية وفنية ، إذ أدت الأختام دوراً مهماً في التوثيق التاريخي واللغوي والاقتصادي والفني في الحضارة العراقية لمدة تزيد عن ثلاثة آلاف سنة ، فقد ظهر الختم الأسطواني في حدود عصر الوركاء متطوراً عن الختم المبسط الذي ظهر في طور حسونة من العصر الحجري الحديث واستمر استعمالها في جميع الأدوار التاريخية للعراق القديم [34]. لقد ظهرت زخرفة شجرة الحياة الآشورية بتصاميم متنوعة وأشكال مختلفة وبديعة على مشاهد الأختام الأسطوانية ، وان هذه الشجرة متعددة الأغصان تتمثل فيها الحيوية العالية والمظهر الجمالي الرائع ومعظم الوحدات الزخرفية فيها ذات معان مستوحاة من الطبيعة العراقية[35]. وقد وجدت نماذج من الأختام الأسطوانية في فن العصر الآشوري الحديث وتم تكرار هذا العنصر مع عناصر زخرفية أخرى على سطوح الأختام من أجل الوازع الديني وتغطية المساحة للختم وإعطاء المنظر الجمالي الرائع[36].

وثمة مشاهد صور فيها الملك بصورة مكررة من اليمين واليسار وهو يمثل ازدواج إعلامي وهو يقترب من الشجرة المقدسة من أجل أن يباركها بنفسه

(33) جودي ، محمد حسن ، تاريخ الفن العراقي القديم ، بغداد ، 1974 ، ص180 .

(34) ناجي ، عادل ، الأختام الأسطوانية ، حضارة العراق ، ج 4 ، بغداد ، 1985 ، ص 222 .

(35) Stromenger ،E. the Art of Mesopotamia ، London 1964, P. 270 .

(36) بارو ، اندريه ، المصدر السابق ، ص128 .

ويحميها ويحف بهذا المنظر الرائع والجميل جنيان ضخمان وهما يحميان الملك نفسه، وفي المشهد نرى قابلية التبادل ما بين الملك وشجرة الحياة التي تحف هذا المنظر والزخرفة هنا ممتدة ومتفرعة على الختم من أجل إضفاء الزينة وان هذا الختم منحوت بنحت بارز من العصر الآشوري الحديث [37] (الشكل رقم 8). وهناك مشهد آخر يصور الجني الذي يلمس الشجرة بكوز من الصنوبر ويمسك بيده بالشجرة وفي يده الأخرى دلواً صغيراً ، ويعتقد في آراء بعض الباحثين أن التلقيح يستخدم لأشجار النخيل غير أن أكثر وأرجح الأقوال أن هذا السطل يحتوي سائل مقدس يترشح من جذع تلك الشجرة وأوراقها وثم يتحول إلى ماء مقدس وبهذا الماء يتقدم الجني إلى الأمام ويرش الملك بهذا الماء ويقصد من ذلك أن يطهره بهذا الماء المقدس ويقتل القوى الشريرة ، والمشهد يمثل منظراً رائعاً فظهور زخرفة شجرة الحياة في واجهة الختم الأسطواني ينحصر بأختام أفراد عائلة الملك وزوار قصر الملك آنذاك[38] (الشكل رقم 9). ويصور لنا مشهد ختم أسطواني يظهر عليه رجلي العقرب يحملان آشور المجنح وبطل يحمل صيداً من أيلين وظبيين يعود هذا الختم إلى القرن التاسع عشر (ق.م)، ويزين هذا الختم في الوسط شجرة الحياة وبراعمها المستمدة من اليمين واليسار وفوقها القرص المجنح وثمة شخصان يتعبدان على جانب هذه الشجرة ونلاحظ في هذا الختم على جناحي آشور رأسين يكونان معه رمز التثليث الإلهي الآشوري المؤلف من جو ـ آشور ـ ايا [39] (الشكل رقم 10). ولقد عثر على ختم آخر أسطواني حول موضوع الشجرة المقدسة ويعود هذا الختم

(37) Black, Jeremy, and Anthony grcen, Gods demons and Symbols of Ancient Mesopotamia, London, 1943, p. 99 .

(38) Reade, J, op. Cit. P. 64 .

(39) عكاشة ، ثروت ، المصدر السابق ، ص516 .

لفترة الدولة الآشورية الحديثة ، حيث نشاهد جني من الجهة اليمنى يقف أمام الشجرة وجنيان من الجهة الأخرى أيضاً واقفان واحد من اليمين والآخر من اليسار وفي وسطهم الشجرة المقدسة وهي الجهة اليسرى للختم الأسطواني تزين هذه الشجرة واجهة الختم بكثرة التفرعات وإملاء المساحة وإعطاء مظهر جمالي لائق وفي يد كل جني من الجهة اليسرى زخرفة كوز الصنوبر وفي الجهة اليمنى دلو يحتوي على الماء المقدس الذي يرشها على الشجرة المقدسة من أجل مباركتها والزخرفة تحف الختم من كل الجهات وهو أسلوب له أهمية خاصة عند الآشوريين آنذاك [40] (الشكل رقم 11). أما التصميم الآخر لشجرة الحياة فهو ظهورها في وسط المشهد أو الختم الأسطواني برفقة جنيان جالسان على الرُكب أحدهم في الجهة اليمنى والآخر في الجهة اليسرى واليد اليمنى مرتفعة إلى الأعلى واليد اليسرى وسط الشجرة والقدم اليمنى إلى أمام الشجرة والقدم اليسرى إلى الوراء وهذا المشهد الجميل تحف به الشجرة المتكونة من تفرعات عديدة ومتشابكة تزينه وتملأ جميع المساحة الخالية في المشهد ، ويعد هذا المشهد واحداً من أجمل أساليب الزخرفة على الأختام الأسطوانية[41] (الشكل رقم 12). إن هذه النماذج تقيم الأختام الآشورية وهذه الأعمال الزخرفية يمكن مشاهدتها كأعمال فنية من خلال كلمة الفن بمعناها الحالي الذي يجسد المفهوم الجمالي والتزيين و إن النحاتين يشكلون جزءاً مهماً جداً ، ولعلنا نتحدث عن براعة الفنان الآشوري في تنفيذ التصميم على الأختام والمهارة المتزايدة والهدف من ذلك تمجيد الملوك الآشوريين ، ونقدر هذا العمل للفنان الآشوري من خلال دراسة هذه المشاهد النحتية والتعبير عنها بصورة

(40) Frankfort. H. The Art and Architecture of Ancient orient. U. S. A. 1958. P. 142 .

(41) Menszynski, Jonusz dierenkons truktloner reliefd Astenungenlhrer Anordnurgim nord west palastvan Kalhu (Nimrud) – 1981 – p.q .

عقلانية ومتماسكة ومتناسقة ، وان هذا العمل الفني المبدع يؤثر في أصحاب المقامات الرفيعة [42]. ولقد استخدمت هذه الزخرفة المنفذة على سطوح الأختام الأسطوانية لأهميتها الدينية أولاً وإبراز الزينة الجمالية على النتاجات الفنية ثانياً، لذا اعتمد الفنان على الزخارف النباتية ومن أجملها عنصر شجرة الحياة في تجميل روائعه الفنية وزخرفتها بتمعن على الأشكال والأنماط المتعددة في الأعمال الفنية[43] .

عنصر زخرفة شجرة الحياة في الرسوم الجدارية

للرسوم الجدارية دور كبير ومؤثر في الجانب الإعلامي لما احتوته من رسومات وزخارف بألوان تمتاز بالجاذبية والجمال وقد أضفت المزيد من الفخامة والهيبة والتطور على قاعات القصور الملكية الآشورية [44] . ونفذت هذه الرسوم باعتبارها جزءاً من الدعاية الملكية فقد كانت نوعية الموضوعات والرسومات تخص كل ماله علاقة بتعظيم مقام الملوك الآشوريين ولحمايتهم من القوى الشريرة والأعداء ، وزخرفة شجرة الحياة لها أهمية كبيرة في هذا المجال لما تحتويه من القدسية الدينية [45]. وان الرسوم الجدارية ذات جذور عميقة في الفن العراقي ويرجع السبب في ذلك إلى تفنن الفنان في تكوين هذه الرسوم وان أهم الألوان المستخدمة آنذاك هو اللون الأسود والأبيض والأحمر والأزرق ويبدو من ذلك أن

(42) شيت ، أزهار هاشم ، الدعاية والإعلام في العصر الآشوري الحديث (911 – 612 ق.م) ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة الموصل ، 2000 ، ص104 .

(43) عكاشة ، ثروت ، المصدر السابق ، ص195 .

(44) بارو ، اندريه ، المصدر السابق ، ص116 .

(45) الجادر ، وليد ، المصدر السابق ، ص469 .

لهذه الألوان أسرار خاصة ومفاهيم وتأثيرات نفسية واجتماعية وهذا يخلق انسجام تشكيلي ومتعة وبهجة للناظر [46]. وزخرفة شجرة الحياة تمثل أبدع الأشكال الزخرفية الآشورية هنا وذلك لأنها تظهر في رسوم لتبرز فيها تقنيات رسم الشجرة المقدسة[47]. وثمة مشهد يمثل لنا عنصر زخرفة شجرة الحياة بأشكالها المختلفة وهو يمثل شجرة الحياة الغزيرة بمفرداتها ورموزها التي لها علاقة واضحة بالطبيعة والمجتمع وله علاقة وثيقة ومهمة بالديانة ، وان النموذج يمثل موضوعاً متكاملاً من حيث أشكال الشجرة والألوان المستخدمة بشكل خاص ولا عجب في ذلك فان ما تلقته المدرسة الآشورية هو وضوح أسلوبها ورصانة زخرفتها وبراعة فنانيها ومقدرتهم الجديرة بتوفير إنتاجات متكاملة تبرز فيها العاصمة الآشورية [48] (الشكل رقم 13) . وثمة مشهد يمثل لوحة جدارية منحوتة بالنحت البارز تعود لمدينة النمرود تزين القصر الشمالي الغربي للمدينة وهي عبارة عن ملاك مجنح على الجهة اليسرى يحمل بإحدى يديه دلواً وبالأخرى ثمرة الصنوبر ، ونرى في هذا المشهد أن رأس الملك مفقود وفي وسط المشهد نحت لنصف شجرة الحياة تزين المشهد ، وإن كل وحدة زخرفية تظهر على الشجرة تعطي المدلول الرمزي الديني وتعمل على تحلية المشهد، إذ نرى في هذا المشهد الجداري براعة الفنان والذوق

(46) المصدر نفسه ، ص448 .

(47) مظلوم ، طارق عبدالوهاب ، النحت في عصر فجر السلالات حتى العصر البابلي الحديث ـ حضارة العراق ، ج4 ، بغداد ، 1985 ، ص70 .

(48) الجادر ، وليد ، المصدر السابق ، ص446 .

الفني الرائع المعبر عن الزخرفة والنقش الذي قدمه الفنان بجمال فائق يمثل أسلوب الفن الآشوري الحديث [49] (الشكل رقم 14) .

عنصر زخرفة شجرة الحياة في العاجيات

يعد العاج مادة نفيسة لما احتواه من دقة اللون وكونه مادة صلبة تقوى على مقاومة العوامل الطبيعية وتوفر إمكانية الحفر عليها لتماسك ذرات مادتها وسهولة الحصول على سطوح صقيلة فيها ، لهذا ارتبطت صناعة العاج بما كان يقتنيه الملوك والقادة في الشرق الأوسط ومنهم بعض الملوك الآشوريين الذين افتخروا بتجهيز قصورهم بأثاث مزينة ومزخرفة بقطع عاجية لإضفاء المزيد من الفخامة والترف على أجنحة البلاط الآشوري [50]. وعلى الرغم من ذلك فان الدعاية قد ظهرت على العديد من المنحوتات الآشورية والمشاهد التصويرية تصور قطع الأثاث وهي تقدم إلى الملك الآشوري آنذاك وان الزخرفة دخلت بوصفه عاملاً أساسياً في تطعيم وتزيين القطع العاجية بتقنيات عالية جدا [51]. وثمة مشهدان يمثل الأول الإله الجبل والمشهد الثاني يمثل الثور المجنح ، المشهدان يمثلان افريز مطعم من العاج مزين بحزوز رتبت هذه الرسوم داخل الافريز والشيء الواضح أن الفكرة التي أوحت بهذا النتاج الفني ترتبط بشكل وثيق مع المنحوتة الدينية النائية وفي المشهدين تبرز زخرفة شجرة الحياة الآشورية في كل مشهد تصميم زخرفي رائع، وهذه القطع العاجية تعد من أنفس القطع التي تضم زخرفة شجرة الحياة

(49) العراقي، ميسر سعيد، ألواح النحت البارز في القصر الشمالي الغربي في النمرود، مجلة سومر، المجلد 38 ، العدد 1 - 2 ، بغداد ، 1982 ، ص97 .

(50) سفر ، فؤاد ، ميسر سعيد العراقي ، عاجيات النمرود ، بغداد ، 1987 ، ص11 .

(51) الجادر ، وليد ، المصدر السابق ، ص450 .

الآشورية وفق التقنيات العالية من النقش والتطريز [52] (الشكل رقم 15). برز الآشوريون في الصناعات العاجية فكانوا ينحتون المنحوتات نحتاً دقيقاً متقناً ولا عجب في ذلك فان المدرسة الآشورية في وضوح أسلوبها ورصانة خطوطها وبراعة فنانها يعبرون عن مقدرتهم الجديرة بتوفير إنتاجات فنية متكاملة [53] .

عنصر زخرفة شجرة الحياة في المنحوتات المعدنية

لقد عرف العراقيون القدماء المعادن منذ فترة مبكرة وتعلموا طرق وأساليب تصنيع النحاس أولاً ومن ثم تلك المعادن الأخرى وما يتبعه من الذهب والفضة والرصاص واستخدام القصدير لصناعة البرونز وبرعوا في صناعة الحلي والأواني الدقيقة المزخرفة بالحفر والنقش بأسلوب فني رائع جميل [54] . لقد اشتهر العراقيون في الفنون التطبيقية والتشكيلية ، وتعد المعادن من الفنون التطبيقية أي التحف المعدنية الحباب الفخارية ذات الزخارف والكتابات والتصاوير البارزة [55]. وثمة مشهد جميل ورائع يمثل إبريقاً من الذهب خاص ببعض الطقوس الدينية ذ ا فوهة واسعة تنتهي بحافة تميل إلى الخارج ورقبة طويلة تتصل ببدن مكرر وقاعدة أفعى محدبة ومزخرفة برأس حيوان تنين أو أفعى يمسك الجزء العلوي منها بحافة الإبريق وفي وسط الإبريق ثلاثة أشرطة الأول في حافة الإبريق العليا والثاني يحيط بالبدن والثالث على القاعدة وتتألف هذه الأشرطة من زخارف هندسية ونباتية ونقشت مشاهد لصيد حيوانات غزلان واسود ونعامات وفي وسط هذه الأشرطة

(52) الجادر ، وليد ، المصدر السابق ، ص449 .

(53) مورتكات ، أنطوان ، المصدر السابق ، ص436 .

(54) مظلوم ، طارق عبدالوهاب ، المصدر السابق ، ص453 .

(55) علام ، نعمت إسماعيل ، فنون الشرق الأوسط والعالم القديم ، بغداد ، 1975 ، ص173 .

زخرفة شجرة الحياة الآشورية التي تزخرف هذا الإبريق بأسلوب رائع جداً وجميل وان الغرض من ذلك لأهميتها الدينية وللإيحاء بمنظر رائع يزين الإبريق المعدني في العصر الآشوري الحديث [56] (الشكل رقم 16) . وثمة مشهد آخر يمثل رسم على ثلاث حليات من الذهب، الأول من الحجر الأزرق الداكن مزخرفة من الأسفل بزهرة الرمان وعلى شكل مستطيل ، وأما المشهد الثاني مستطيل الشكل أيضاً ويبدو على شكل فص كبير لشجرة الحياة المقدسة مطعم بأحجار مختلفة الألوان وقد ملأت معظم مساحة الفص ، وفي الأسفل مشهد آخر مزخرف بزهرة الرمان ، وأما المشهد الثالث رسم لنخلة تحتوي ستة سعفات يتدلى منها عزقات من التمر يحلي المشهد ومن الأسفل مزخرف بزخرفة الدوائر التي تزين الإطار وهذا المشهد الجميل يمثل الوحدة الزخرفية المتكررة في التزيين والتطعيم وهنا نرى الرسام الآشوري قد نجح إلى حد كبير في توظيف الرسوم على المعادن إلى درجة واضحة من القدرة والحس الفني والتقني[57] (الشكل رقم 17) .

(56) حسين ، مزاحم محمود ، وعامر سليمان ، نمرود مدينة الكنوز الذهبية ، بغداد ، 2000 ، ص 185 .

(57) Reade, J, E. op. Cit. P. 30 .

الاستنتاجات

يتضح من خلال دراستنا لعنصر زخرفة شجرة الحياة في الفن الآشوري الحديث جملة من الحقائق العلمية وعلى درجة من الأهمية ، أن مضمون شجرة الحياة مضمون ديني يتمثل بحماية العناصر الموجودة في الطبيعة ليتم فيها عملية الإنماء والخصب والتجدد والعطاء ، وان وجود الملك أمام الشجرة هو مفهوم ارتباط الملك الوثيق بالحفاظ على الحياة وتجددها ، كما تتمثل هذه الشجرة بأشكال مختلفة شبيهة بشجرة النخلة وهذا ما يتمثل في القسم الجنوبي من العراق وشبيهة أيضاً بأشجار الصنوبر وهذا ما يتمثل في القسم الشمالي من العراق، وأن الهدف من هذه الشجرة هو ديمومة الحياة وقتل كل رموز الشر وتكون الزخرفة لشجرة الحياة، وتكون مستوحاة من الطبيعة والقضاء على الفراغ في سطوح جدران الرسوم والمنحوتات الجدارية والأختام الأسطوانية والمنحوتات المعدنية والعاجيات، وهنا أظهرت هذه الدراسة مهارة الفنان الآشوري في تنفيذ أعمال الزخرفة والعمق الواضح في أساليب تنفيذها وتنمية الإحساس بجمال الطبيعة والانجذاب إلى كل ما هو جميل ومزين وعلى واجهات المنحوتات الجدارية والأختام الأسطوانية، والعمل على تطوير فن الزخرفة عبر العصور وتراكم الخبرة وتواصلها عبر الأجيال الأخرى وظهور الفن الآشوري الحديث وتطور الفنان الآشوري، وهذا يعكس الإحساس المرهف والمعبر عن الطبيعة عما تتضمنه من معان سامية يرقي الفكر ونتاجاته.

(شكل رقم - 1 -)

مأخوذ من : Gloraant , Gabbini , The Ancient world, op . cit , p 50

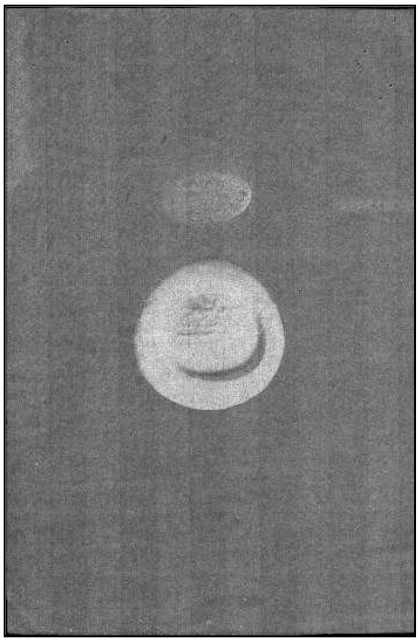

(شكل رقم - 2 -)

مأخوذ من : Reade . J , E , op . cit . p 202

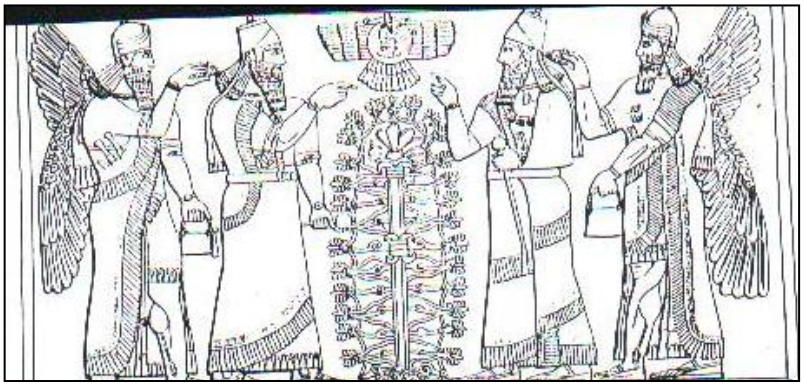

(شكل رقم - 3 -)
مأخوذ من : Parpola , s , op . cit . p 362

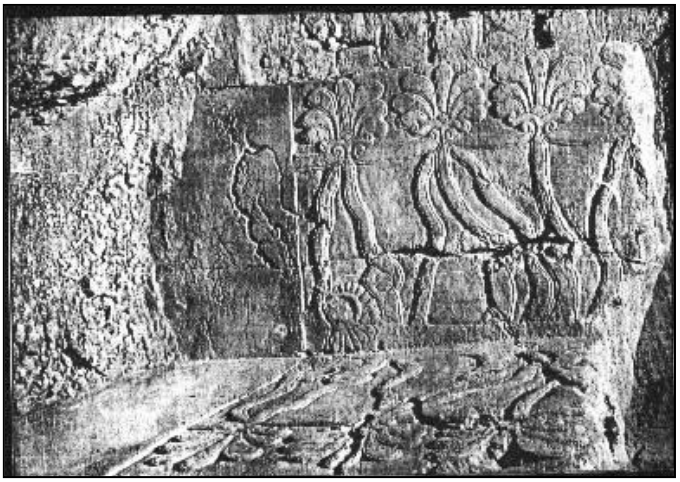

(شكل رقم - 4 -)
مأخوذ من : صالح ، قحطان رشيد ، المصدر السابق ، ص39

(شكل رقم - 5 -)
مأخوذ من : Reade , J , E , op . cit . p 28

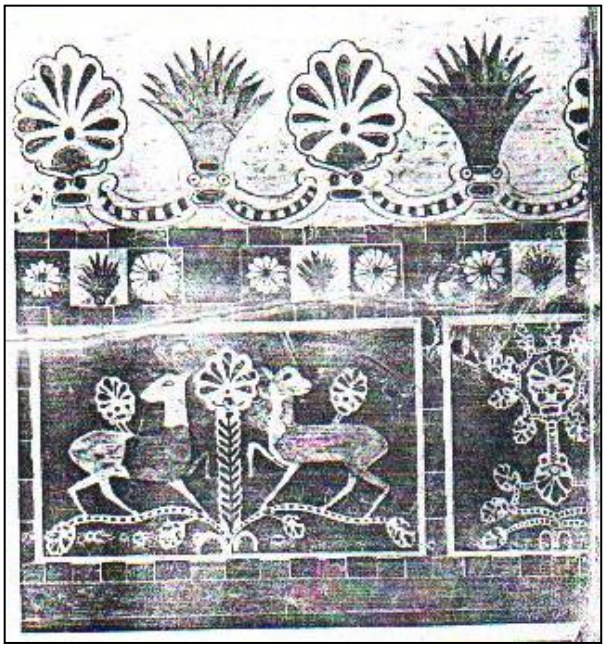

(شكل رقم - 6 -)
مأخوذة من : Reade . J , E , op . cit . p 139

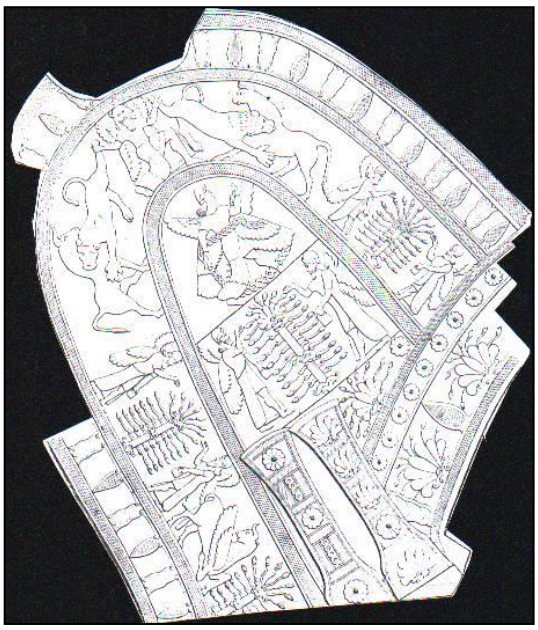

(شكل رقم - 7 -)
مأخوذ من : Madhloom , T , A . op . cit .p . 66

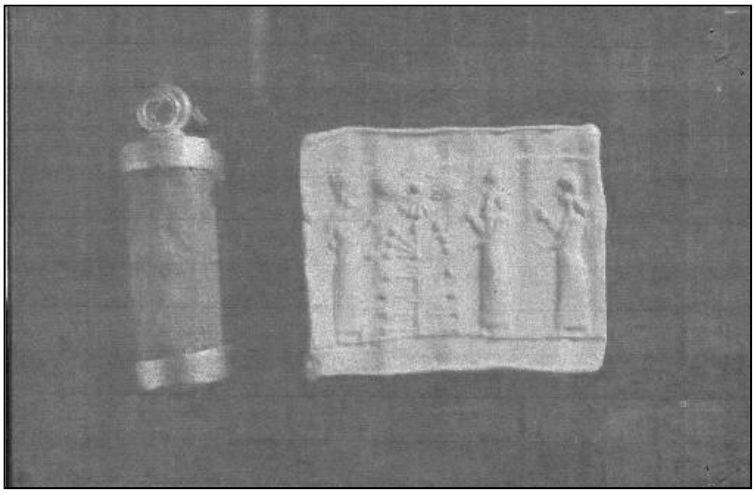

(شكل رقم - 8 -)
مأخوذ من : Black , Jeremy , op . cit , 100

(الشكل رقم - 9 -)
مأخوذ من : Reade , J , E , op . cit . p 69

(الشكل رقم - 10 -)
مأخوذ من : عكاشة، ثروت، المصدر السابق، ص 17

(الشكل رقم - 11 -)
مأخوذ من : Frankfort , H , op . cit . p 142

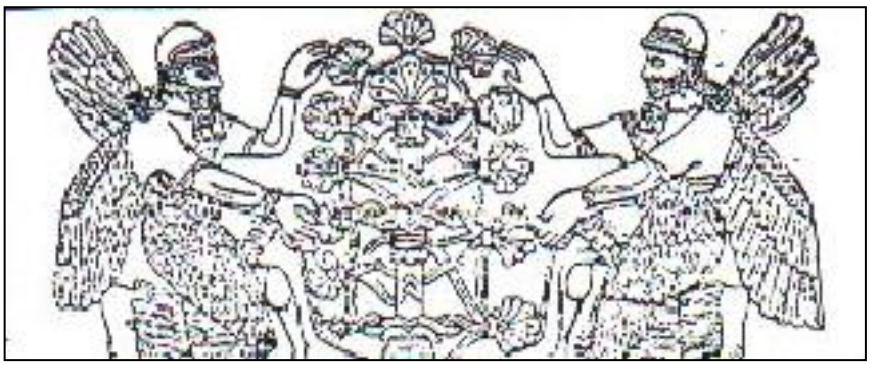

(شكل رقم - 12 -)
مأخوذ من : Reade, J ,E , op . cit , p 30

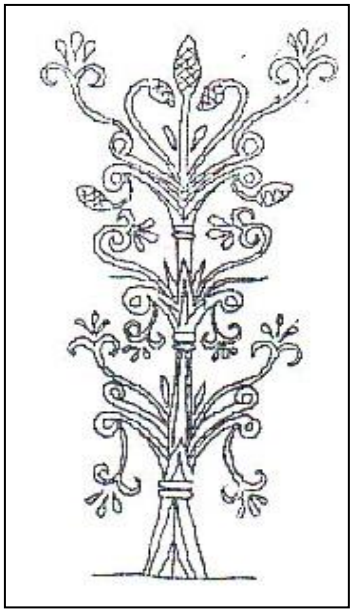

(شكل رقم - 13 -)
مأخوذ من : الجادر ، وليد ، المصدر السابق ، ص446

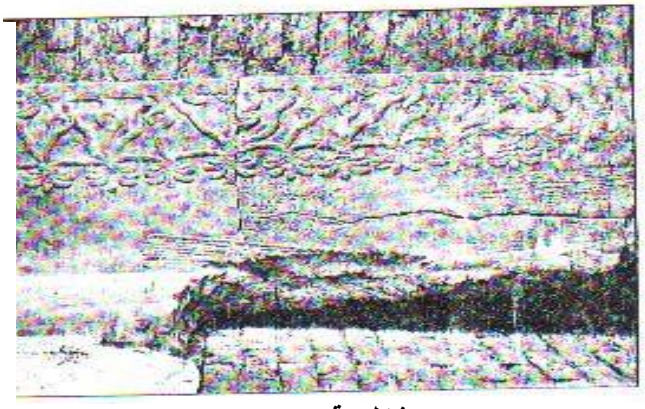

(شكل رقم - 14 -)
مأخوذ من : العراقي ، ميسر سعيد ، المصدر السابق ، ص97

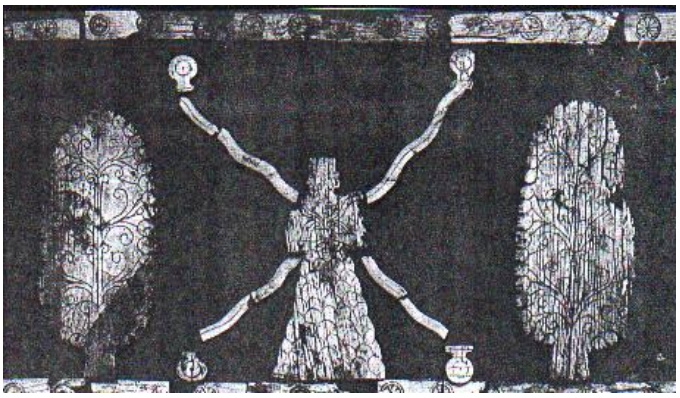

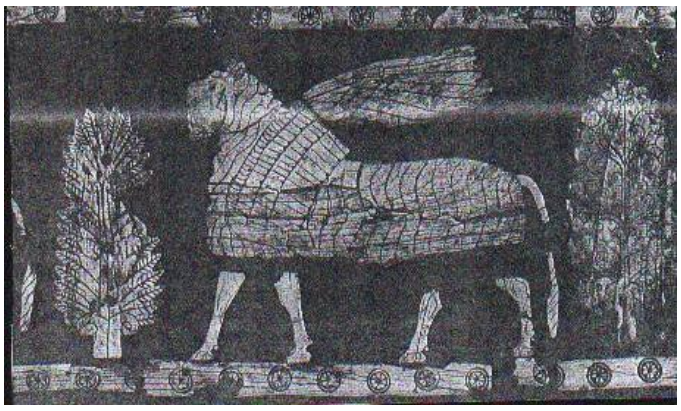

(شكل رقم - 15 -)
مأخوذ من : الجادر ، وليد ، المصدر السابق ، ص449

(شكل رقم - 16 -)
مأخوذ من : حسين ، مزاحم محمود ، المصدر السابق ، ص185

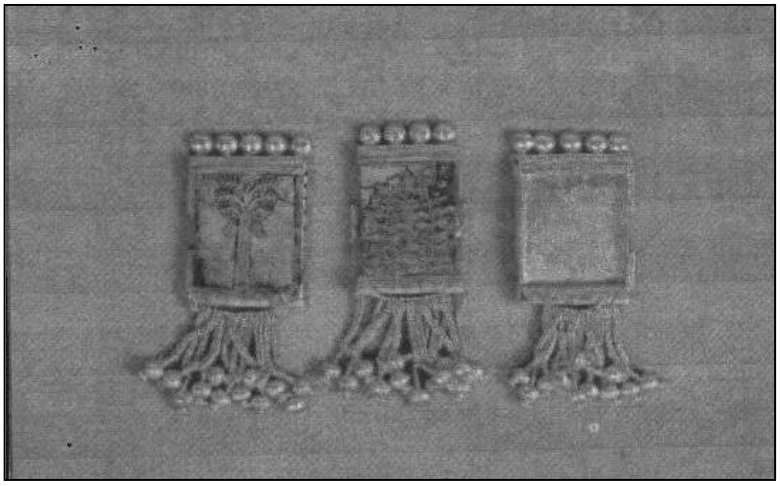

(شكل رقم - 17 -)
مأخوذة من : Reade , J , E . op . cit . p . 30

Abstract

The Assyrian Life – Tree Inscription

Dr. Adal A.Abdaulsatar [*]

Ghasan M . Haji [**]

The current paper presents an introduction to the Assyrian Life–tree inscription and its significance in the Iraqi arts. This ornamentation is one of the masterpieces designed by the Iraqi artist. The main source for this paper is the uncovered evidence during the excavation. Many paintings, reliefs and cylinder seals are found in many sites in Iraq. These samples are to be investigated in this study, analysing their artistic properties and the methods whereby the artist designed them. This decorative element sheds light on very important aspect of inscription in the ancient Iraq. It is regarded as the spring point for inscription in the subsequent ages. This study aims at knowing the Iraqi aquaintance with Life tree up to the end of the Neo–Assyrian age. This kind of inscription was well–known in ancient Iraq. Therefore, we can easily deduce many reasons behind such spreading in the first place, the religions motive. Similarly we deduce the natural beauty that attracts human beings consequently employing this beauty in ornamenting the sculptures, wallpapers and cylinder seals. Finally the technical aspect was among the motives behinds such kind of inscription.

The excavation was done at the University of Mosul expedition to rescue the remained Tell Slal and Tell Dhuwayyich near the old twon of Zimmar. The excavations lasted three successive seasons.

(*) Dept of Arch .College of Arts / University of Mosul

(**) Dept of Arch .College of Arts / University of Mosul